النخبة الإصلاحية في الجزائر – المرجعيات الأعلام والامتدادات –

The reformist elite in Algeria, references, figures and extensions

بن نية فاطمة[1]

المدرسة الوطنية العليا للصحافة وعلوم الاعلام. الجزائر
bennia.fatima@ensjsi.dz

تاريخ الوصول 2020/04/10 القبول 2020/12/28 النشر علي الخط 2021/03/15
Received 10/04/2020 Accepted 28/12/2020 Published online 15/03/2021

ملخّص:

يشكّل البحث في تاريخ النخب وآليات تشكلها ومختلف تمظهراتها الاجتماعية والسياسية، موضوعا ذا أهمية قصوى في العلوم الاجتماعية، إنه موضوع يمكّننا من استبيان العلاقة التبادلية بين الحراك الاجتماعي ودور الأفراد والجماعات في هذا الحراك وتأثرهم به في الوقت نفسه. وانطلاقا من هذه العلاقة تحاول هذه الدراسة البحث في تاريخ النخبة الإصلاحية في الجزائر، كجماعة ذات انسجام نسبي تزاوج في نشاطها بين الجانبين الفكري والسياسي، وعلاقتها بالحركة الوطنية وبالحراك السياسي والاجتماعي للجزائر قبل وبعد الاستقلال، مع إضاءة للمرجعيّات الفكرية والأصول الاجتماعية لهذه النخبة وأبرز أعلامها، وتأثيراتها الاجتماعية وتداخل ذلك التأثير مع الجانب السياسي الذي موضع الحركة الإصلاحية ككل في موقع حرج بين السلطة الاستعمارية ومختلف تيارات الحركة الوطنية كممثلين لنخبة سياسية في طور التكوين بدورها.

الكلمات المفتاحية: النخبة، الحركة الاصلاحية، المرجعيات.

Abstract:

Research in the history of the elites, the mechanisms that shape them and their various social and political manifestations is a subject of utmost importance in social sciences. It is a subject that allows us to explore the reciprocal relationship between the social movement and the role of individuals and groups in this movement as well as its influence on them.
On the basis of this relationship, this intervention attempts to discuss the history of the reformist elite in Algeria as a group with a relative harmony that acted both on intellectual and political sides, and its relationship with the national movement and the political and social movement of Algeria before and after independence by highlighting the intellectual references, the social origins of this elite, its great figures, and its social effects in addition to the overlap of this influence with the political side so that it put the reform movement as a whole in a critical position between the colonial authority and the various currents of the national movement as representatives of a political elite in the process of formation.

Keywords: Elite, Reformist movement, References

[1] المؤلف المرسل: بن نية فاطمة البريد الإلكتروني: bennia.fatima@ensjsi.dz

1.مقدمة :

لا يهدف هذا البحث إلى تقديم سرد كرونولوجي لمسار تشكّل النخبة الإصلاحية الجزائرية ومجالات نشاطها ومآلها السياسي عقب الاستقلال، وإنما هدفنا أقلّ اتساعا من ذلك بكثير، وينحصر في تقديم صورة مختصرة ومركّزة عن الخلفية السياسية والفكرية للنخبة الإصلاحية الجزائرية، وعن مجالات نشاط هذه النخبة وأهمّ أعلامها، وعلاقتها كنخبة فكرية مهيكلة ضمن تيار سياسي ثقافي تم الاصطلاح على تسميته بالحركة الإصلاحية، والمهيكلة تنظيميا ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مع النخبة الإدماجية أو جماعة الشبان الجزائريين، التي قاسمتها في بدايات القرن العشرين فكرة الإصلاح ولكنها افترقت عنها مدى القرب من المجال السياسي.

يقوم هذا البحث على مجموعة عناصر أساسية، بحيث كل عنصر يضيء فكرة أو مجموعة أفكار حول الإصلاح والنخبة الإصلاحية في الجزائر، حيث نبدأ أوّلا بتقديم مفهوم إجرائي للنّخبة الإصلاحية، ثم إطلالة سريعة على السياق التاريخي الذي نشأت فيه فكرة الإصلاح، وكيف انتقلت من مجال الإصلاح السياسي الذي طالبت به جماعة الشبان الجزائريين في بدايات القرن العشرين، إلى المجال الديني والاجتماعي الذي جاء مصاحبا لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لنوضح علاقة النخبة الإصلاحية بالسياسة، وهي علاقة ظلت محل نقاش بين قائل بوجودها ونافٍ لها، ثم نختم البحث بتقديم تفيئة للنخبة الإصلاحية وفق مجالات نشاطها، وقد اكتفينا بثلاث فئات هم الأبرز ضمن هذه النخبة: فئة الدعاة، فئة المؤرخين وفئة الأدباء.

2.مفهوم النخبة الإصلاحية:

يحيل الإصلاح في التناول العربي على معنيين: معنىً سياسيا يتجه نحو الدولة، حيث تطالب به قوى المعارضة أو النخب التي ترى في الدولة قاطرة التغيير، فتتوجه هذه النخب إلى الدولة بمطالب إصلاحية وتضغط من أجل قيام السلطة الحاكمة بإصلاحات سياسية واقتصادية تصب في نهاية المطاف في خدمة الشعب، ومعنىً دينيا برز في القرن التاسع عشر مع "زعماء الإصلاح" في العالم الإسلامي، والذين رأوا بأن سبب تخلف المسلمين عن ركب الحضارة يرجع بالضرورة إلى سببين: أولا، تشويه الدين بالبدع والخرافات، وثانيا، عدم الأخذ بأسباب التقدم الاقتصادية والسياسية والعلمية، وضمن هذا التيار الثاني تندرج النخبة الإصلاحية الجزائرية التي نحن بصدد الحديث عنها.

وإذا كان الإصلاح الديني باعتباره "إعادة النظر في المفهوم الاجتماعي للدين بتنقيته مما لحق به من تشويهات وتحريفات ليتمكن من تحقيق وظائفه الاجتماعية وأبعاده الدنيوية"[1] يحيل مباشرة على علاقة الدين بالواقع الاجتماعي- والسياسي بدرجة أقل، فإن إطلالة سريعة على ميثاق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين باعتبارها الحاضنة التنظيمية للنخبة الإصلاحية في الجزائر وقراءة جرائد الإصلاحيين تُموضع هذه النخبة مباشرة ضمن هذا المعنى الديني للإصلاح وتقدمها كاستمرارية للإصلاح الديني في العالم الإسلامي قاطبة، لهذا يمكننا أن نقدم تعريفا إجرائيا للنخبة الإصلاحية في الجزائر باعتبارها تلك المجموعة من المثقفين ذوو التكوين الديني المعرّب أو المزدوج اللغة، والتي بدأت تعبر عن نفسها عن طريق الصحافة والتعليم منذ زيارة رائد الإصلاح الديني الإمام محمد عبده للجزائر سنة 1903، حيث تهيكلت تنظيميا حول شخص عبد الحميد بن باديس ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بداية من سنة 1931.

3. الخلفية التاريخية للنخبة الاصلاحية:

[1] – زيلوخة بوقرة، سوسيولوجيا الإصلاح الديني في الجزائر، مذكرة ماجستير، قسم علم الاجتماع والديموغرافيا، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009/2008، ص 50.

من المفارقات التاريخية أن حركة الإصلاح بمعناها الواسع قد بدأت في الجزائر مع جماعة النخبة أو الشبان الجزائريين، وهم فئة من الشبان الذين تعلموا في المدرسة الفرنسية وتشبعوا بثقافتها وأرادوا أن يكونوا بذلك جسرا بين المستعمر ومجتمعهم الأهلي. وقد ظهرت منذ أواخر القرن التاسع عشر، البعض يحدد التاريخ بزيارة جول فيري للجزائر والتقائه بممثلين عن الشبان الجزائريين سنة 1892، "جماعة صغيرة لائِكية "علمانية" مفرنسة بصحافتها وجمعياتها وصداقاتها وبمطالبها التي تعتبرها تقدمية"[1]، تجاوزت المطالبة بالمساواة إلى طلب الاندماج، لكنها بسبب هذا الشطط المطالباتي انقسمت إلى قسمين: " قسم يطالب بالمواطنة الفرنسية دون الارتباط بالقوانين الإسلامية الشخصية، وقسم آخر يطالب بالمساواة السياسية مع بقاء التعامل بالقانون الإسلامي"[2]، ولكن هذه الجماعة لم ترتبط بالإصلاح بالمعنى الذي عُرف خلال تلك الفترة من بدايات القرن العشرين، حيث كان الإصلاح وقتها يحيل بشكل مباشر على الإصلاح الديني، وليس بالمعنى السياسي الذي يعني الضغط على الحكومة من أجل تقديم تنازلات والقيام بإجراءات إصلاحية تصب في مصلحة الشعب، وهذا هو المعنى الذي تبنته جماعة النخبة اتجاه الإدارة الاستعمارية، وهو نفس التصور أيضا الذي تبنته الحركة الإصلاحية مقلوبا؛ أي المطالبة بافتكاك المجتمع الجزائري المستعمر من الإدارة الاستعمارية عبر المطالبة بجعل الشؤون الإسلامية والتعليم مستقلة عنها، ولكن أضافت عليه، وهذا ما شكّل جوهر صفتها الإصلاحية، التوجه نحو المجتمع لإصلاحه من الداخل عبر التعليم من جهة وعبر محاربة التصور الطرقي للدين وللحياة من جهة أخرى، وهذا ما موضع الحركة الإصلاحية الجزائرية بنخبها ومؤسساتها ونشاطاتها التعليمية والصحفية والدعوية ضمن تيار أوسع للإصلاح يحيل ويلتقي مع الإصلاح الديني في العالم الإسلامي، والذي قام من أجل تنقية الإسلام من الشوائب التي لحقت به خلال عصور الانحطاط، إضافة الى ربط هذا الدين بالعصر ومقتضيات العيش في الأزمنة الحديثة.

انطلاقا من هذا التصور للإصلاح، وبالتالي للدور المنوط بها، وقفت النخبة الإصلاحية في منطقة وسط بين تيارين فكريين يتنازعان تمثيل المجتمع الأهلي المستعمر: تيار النخب الدينية المحافظة والذي تمثله الزوايا والطرق الصوفية والأئمة الرسميون، وتيار جماعة النخبة والذي يمثله معلمون وأطباء ومحامون تخرجوا من المدرسة الفرنسية بالإضافة إلى بعض الأعيان، وهي حين وقفت في تلك المنطقة، قامت بإدانة كلا التيارين ودخلت معهما في صراعات ومعارك فكرية واسعة، وإذا كان صراعها من جماعة النخبة غير ظاهر للعيان بشكل جلي نتيجة التقاطع في الكثير من الأفكار كالمطالبة بالعلمانية، والدعوة الى التجنس بالجنسية الفرنسية، فإن الصراع مع تيار المحافظين والطرق الصوفية كان على أشده، وكانت صفحات جرائد كل طرف ساحة له.

لقد كانت جزائر بدايات القرن العشرين تَعرف، بالإضافة إلى نشاط جماعة النخبة أو الشبان الجزائريين، صعودا مظفرا لتيار ذو مرجعية دينية، وغايات إصلاحية، يعمل كجماعة، ويجتهد في نفي أي صفة سياسية لنشاطه، ويتخذ من الصحافة والتعليم وسيلةً وغايةً لبلوغ أهدافه، إنه التيار الإصلاحي الذي سوف يتهيكل بداية من سنة 1931 ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي سيكون لها دور كبير، وخطير، وبالغ الأثر في التاريخ الاجتماعي والسياسي للجزائر المستعمرة والمستقلة معا.

إنّ بدايات تبلور الصحوة الإسلامية في الجزائر تعود إلى السنوات الأولى للقرن العشرين، ويعود المشتغلون على النخبة الإصلاحية إلى سنة 1903 كنقطة مفصلية في بروز وتطور هذه النخبة وتكاتفها الذي حولها إلى حركة ذات تنظيم "جامع" هو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهي نفسها السنة التي زار فيها المصلح الكبير محمد عبده الجزائر، وحظي باستقبال كبير كان له أثر شديد الوضوح في نفوس بعض النخب التقليدية (عبد الحليم بن سماية، عبد القادر المجاوي، محمد راسم)، حيث تلقّفت عنه فكرة الإصلاح ودعت إليها مما جعل بعض رجال الدين الجزائريين يتبنون الكثير من أفكار المصلح المصري وتلميذه رشيد رضا صاحب جريدة "المنار"، والتي سيكون

(1) – عبد الحميد بن باديس، آثار الشيخ بن باديس، اعداد وتصنيف: عمار طالبي، الشركة الجزائرية، ط3، 1997، ص 51

(2) – المرجع نفسه، ص 52.

لها- كمنبر إعلامي – الأثر الإيديولوجي البالغ على نخبة الإصلاح الجزائري التي استلهمت التجارب المشرقية في الإصلاح الديني خاصة عند محمد عبده ورشيد رضا، وبدرجة أقل التيار الوهابي في شبه الجزيرة العربية، وذلك من خلال الرؤية السلفية التي تموضع السلف الصالح في مكانة النموذج والمثال الواجب الاحتذاء، والغاية التي لا ينال المسلم المعاصر السعادة في الدنيا والآخرة إلا إذا بلغها وتمثّلها إيمانا وعملا.

لسنا هنا بصدد عرض البرنامج الديني للتيار الإصلاحي وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فذلك موضوع لا يعنينا في سياق البحث عن الدور الذي لعبته النخبة الإصلاحية، التي من ضمنها، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ورغم الطابع الديني الغالب على معظم أعضاء الجمعية، إلا أن العمل الثقافي كان حاضرا في قلب هذا التيار الذي استقطب أيضا مجموعة من الكتاب الذين لم يكونوا فقهاء وأئمة، ولا حتى ذوي تكوين ديني بالضرورة، إنما صحفيين ومؤرخين وشعراء ساهموا، عبر الكتابة، وعبر التدريس أيضا. وقد شكّل التعليم أداة قوية بيد الجمعية، في صياغة الرؤى الفكرية والتصورات الإيديولوجية للتيار الإصلاحي، وتجاوزوا في كثير من الأحيان الطابع الديني للجمعية، نحو آفاق فكرية أرحب تجلّت في مؤلفات متعددة: أدبية، تاريخية، سياسية واجتماعية، من خلال أسماء رغم انتمائها التنظيمي، وولائها الإيديولوجي للتيار الإصلاحي، إلا أنها كانت تكتب من خارج الدائرة الفكرية لنشاط العلماء، وتركت أثرا جليا في النهضة الأدبية والفكرية للجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين. إن أيّ حديث عن نهضة الجزائر، في المجال الأدبي والثقافي لا يمكن أن يكون دون التوقف، بجدية وتعمق، عند الجهد الذي قام به أعضاء جمعية العلماء المسلمين الذين صار عدد كبير منهم أعلاما على تلك النهضة الوليدة (محمد العيد آل خليفة في الشعر، رضا حوحو في القصة والرواية، البشير الابراهيمي في المقال الأدبي والسياسي، عبد الحميد بن باديس في التأليف الديني، مبارك الميلي وعبد الرحمان الجيلالي وتوفيق المدني في الكتابة التاريخية...). لقد خلقت النخبة الإصلاحية زخما ثقافيا عبر انخراطها في تناول مختلف القضايا التي كانت تشغل الجزائر في تلك المرحلة، خاصة ما تعلق منها بالجانب السياسي (الاندماج التجنيس وما لحقه من فتاوي سياسية، الوقوف في وجه استشراء النزعة البربرية التي أدانوها اعتمادا على تصور ديني محض يعلي من قيمة وحدة الأمة)، والاجتماعي (مكانة المرأة في المجتمع، التعليم) والديني (محاربة الطرقية والمرابطية، والتنديد بالتنصير)، متوسلين لتحقيق ذلك بوسيلتين: التعليم والصحافة.

بعد الحرب العالمية الأولى بدأت النواة الصلبة للإصلاحيين بالتشكل عبر تقارب أفرادها الذين التحقوا بالجزائر تباعا، وقد كان أغلبهم، لأسباب متعددة، خارج الوطن، فقد " جاء الشيخ بن باديس من الزيتونة بتونس والشيخ المجاوي من المغرب وعمر بن قدور من مصر والطيب العقبي ورضا حوحو كانا قد أقاما بالحجاز والبشير الابراهيمي درّس في سورية"[1]، وعاد العربي التبسي من تونس بعد سنوات قضاها بين الأزهر والزيتونة، وكان الأمين العمودي قد خبر النشاط السياسي وتمرّس في الصحافة المكتوبة بالفرنسية قبل ذلك بسنوات، وأتى توفيق المدني من تونس منفيا إلى الجزائر، في حين كان الشيخ إبراهيم بيوض قد باشر نشاطه الإصلاحي على مقربة زمنية من نشاط الشيخ بن باديس، وذلك عبر تأسيسه لمعهد الحياة بغرداية، هؤلاء وغيرهم من المنخرطين بحماس في الجهد الإصلاحي كانوا نتاجا طبيعيا للحراك السياسي والاجتماعي الذي عرفه العالم بعد الحرب العالمية الأولى، خاصّة الأحداث السياسية الكبرى بالعالم الإسلامي (سقوط الخلافة الإسلامية وتأسيس الجمهورية التركية العلمانية، اتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور، انتشار الأفكار الإصلاحية للأفغاني وعبده)، كما كان استجابةً للحراك الفكري والسياسي الذي بادر به الفتيان الجزائريون عبر مطالبهم المتكررة بوجوب النهوض بالمجتمع الأهلي. دعوة الشبان الجزائريين ثم لاحقا الحركة الإصلاحية كانتا نتيجةً "لمخاض الأذهان والحماس الإيديولوجي اللذين تميزت بهما الحياة

[1] – يحياوي مرابط مسعودة، المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية في جزائر القرن العشرين، المجلد الأول، تر: محمد المعراجي، دار هومة، الجزائر، 2010، ص 255.

الإسلامية بعد الحرب"[1] والتي جعلت مجموعة من الشباب المعربين ذوو التكوين المشرقي، في معظمهم، والذين تخرجوا من الزيتونة والأزهر غالبا، ينخرطون، على غرار نظرائهم ذوو التكوين الفرنسي، في الحياة الفكرية والسياسية والمطالاباتية بحماس محاولين كسر الامتثالية Le conformismeالدينية والسلبية الثقافية لإخوانهم في الدين"[2] وذلك عبر محاربة البدع وكل ما هو بعيد عن جوهر الدين، ومقاومة محاولات الاستحواذ الأخلاقي على الجزائريين من طرف الاستعمار عبر وعود الاندماج والتجنيس، هاتان النقطتان ستشكلان الخط الافتتاحي لخطابهم الإصلاحي، وركيزة المواجهة ضد الايديولوجيا الكولونيا لية، وفي الوقت نفسه ضد التيارات التقليدية للإسلام الجزائري خاصة المرابطين وشيوخ الزوايا الذين سيدخل الإصلاحيون معهم في حرب شعواء.

إن الفكر الإصلاحي وما نتج عنه من نشاطات ذات طبيعة ثقافية وسياسية، رغم تأكيد جمعية العلماء المسلمين على أنها جمعية تسعى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبر الإصلاح الديني والاجتماعي، بدأ بعد الحرب العالمية الأولى، وهو " ثمرة مسار طويل لفكر محمد عبده السابق لفترة العشرينيات، غير أننا يمكن أن نجعل من عام 1926 أو 1925 السنة التي قرر فيها بعض الشباب المتعلم تعليما شرقيا الانتقال إلى العمل حول ابن باديس والشيخ الإبراهيمي"[3]، خلال هذه الفترة كان عبد الحميد بن باديس، وهو مركز الاستقطاب الرئيسي للإصلاحيين، والزعيم والملهم، قد أنشأ أول جريدة لنشر الفكر الإصلاحي وهي جريدة المنتقد التي تأسست في 2 جويلية 1925، وسيعتمد الاصلاحيون على الصحافة والتعليم كوسيلتين أساسيتين لنشر أفكارهم، رغم تفشي الأمية والجهل في صفوف الجزائريين، لكن قبل ذلك سوف ينتظمون في إطار هيكل جامع لشتاتهم عبر إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[*] يوم 5 ماي 1931 بنادي الترقي بالعاصمة، وهي الجمعية التي ستتولى نشر الفكر الإصلاحي، وستعمل كهيكل تنظيمي جامع وذو موارد مالية معتبرة، وقدرة تنظيمية مذهلة، على اقتحام مجالات ظلت مهملة من طرف الجزائريين، خاصة ما يتعلق بالتعليم الذي كان قبل مباشرة الجمعية لجهودها التعليمية، منقسما بين تعليم فرنسي هادف إلى تخريج وسطاء يمكنون الإدارة الفرنسية من حكم الأهالي وإدارتهم بشكل أفضل، وتعليم أهلي تقوم به الزوايا يتسم بالضعف والهشاشة والركون للمناهج والأساليب القديمة التي لم تتطور بسبب تردي وضعها الاقتصادي وعجزها عن الإيفاء بمتطلبات العملية التعليمية، إضافة الى بعض المدارس الحرة بالقرى والمداشر والتي لا يتجاوز التعليم فيها معرفة الحروف وحفظ بعض آيات القرآن الكريم والتي يقوم بها بعض "الطّلبة" تطوعا أو بطلب من الأهالي الذين يتكفلون بمأوى وطعام معلّم القرآن.

4. النخبة الإصلاحية: الدين سبيلا للإصلاح الاجتماعي والسياسي

إن الاهتمام الذي أولته الحركة الإصلاحية ونخبتها للتعليم والصحافة بغية نشر الوعي في المجتمع يحيلنا على نقطة ظلّت موضوع خلاف كبير بين مختلف الباحثين الذين درسوا الحركة الإصلاحية، وهو الطابع السياسي لهذه الحركة ولنشاط نخبتها، فقد ظلت جمعية

---

(1) – علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، تر: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 43.

(2) – المرجع نفسه، ص 43.

(3) – شارل روبير أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 إلى اندلا ع حرب التحرير 1954، الجزء الثاني، تر: محمد حمداوي وإبراهيم صحراوي، مر: عياش سلمان، دار الأمة، الجزائر، 2013، ص 513.

(*) – كتب شارل روبير أجيرون عن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: " تعود مبادرة التأسيس في الواقع إلى أحد أثرياء البورجوازيين في مدينة الجزائر ينحدر من منطقة القبائل، يدعى عمار إسماعيل، الذي وضع تصورا شخصيا لجمعية متفتحة على جميع علماء الدين المهتمين بشأن تحسين حال الشعب الجزائري ثقافيا وخلقيا. غير أن فريق الإصلاحيين استأثر بمناصب القيادة في اللجنة المديرة بيد أن شيوخ الزوايا اكتفوا بمناصب المساعدين الثانوية رغم أنهم كانوا يمثلون ست زوايا كبيرة". أنظر: شارل روبير أجرون: تاريخ الجزائر المعاصر، الجزء الثاني، مرجع سبق ذكره، ص 523.

العلماء المسلمين الجزائريين كتنظيم معبر عن فكر وتطلعات نخبة الإصلاح الجزائري تنفي أية علاقة لها بالسياسة، وتؤكد على أنها جمعية دينية إصلاحية وليست حزبا سياسيا ولا فضاء لبروز أية مطامع سياسية، ولكن تاريخ الجمعية وعلاقتها بمختلف تيارات الحركة الوطنية من جهة والإدارة الاستعمارية من جهة ثانية، تنفي عنها هذا الادعاء بالبعد عن السياسة. إن "منشأ الجمعية في الأصل كان غير تصادمي مع السيادة الفرنسية في الجزائر، لكن العلماء الذين لم تكن لهم ميول سياسية سرعان ما غادروا صفوفها في سنة 1938، لأنهم لم يقبلوا بالدمج بين الإصلاح الديني والسياسة"[1] هذا ما كتبه المؤرخ الألماني ارتموت ألسنهانس، وأيد رأيه القائل بالدور السياسي لجمعية العلماء المسلمين المؤرخ الفرنسي جون غلوري الذي كتب "إن شعارات جمعية العلماء كانت بمثابة برنامج سياسي لها، وعلى الرغم من كون بدايته النظرية كانت ذات طبيعة دينية وثقافية، إلا أن العلماء انخرطوا في اتخاذ مواقف سياسية"[2]، واقتحموا المجال المطالباتي ذو الطابع السياسي في مناسبات عديدة (المؤتمر الإسلامي 1936، بيان الشعب الجزائري 1943)، وكانت مطالبهم اتجاه الإدارة الاستعمارية تتجاوز في كثير من الأحيان الجوانب الدينية والاجتماعية إلى مطالب ذات طبيعة سياسية خالصة.

إن المرحلة التي ظهرت فيها الأفكار الإصلاحية هي مرحلة نهضة عامة عرفها المجتمع الأهلي خاصة على المستوى الثقافي والسياسي، حيث نشطت الصحافة باللغتين الفرنسية والعربية، وبدأت نتائج المدرسة الفرنسية تبرز للعيان من خلال تشكل نخبة من المثقفين الجزائريين المفرنسين والمؤمنين بوجوب استفادة الأهالي من "نور الحضارة الفرنسية"، في تلك الفترة بدأت المطالبات السياسية (حركة الشبان الجزائريين، حركة الأمير خالد، حزب نجم شمال إفريقيا، فدرالية المنتخبين...)، كما برزت في الجهة الأخرى، أي الإدارة الفرنسية، نوايا وخطط لإدماج الجزائريين بشكل أفضل، وأقل إجحافا، في المنظومة الاستعمارية، خاصة بعد مشاركتهم الفعالة في المجهود الحربي بين سنتي 1914-1918، وتجلت تلك النوايا خاصة في قانون 4 فيفري 1919 الذي فتح " الطريق للتحرر الاجتماعي والسياسي للمسلمين بمنح الحق الانتخابي لبعض الشرائح من الأهالي وبتقديم تسهيلات لأولئك الذين كانوا يرغبون في الحصول على الجنسية الفرنسية"[3]، كما بدأت حركة الهجرة الكبيرة نحو فرنسا، بعد أن كانت الهجرة مقتصرة بشكل شبه كلي على العالم الإسلامي.

كل تلك الظروف كان لها الأثر البالغ في صياغة توجهات الخطاب الإصلاحي الذي تمركز، كهدف أساسي، في استعادة وبعث مقومات الهوية الجزائرية خاصة فيما يتعلق بالدين (وجوب تنقيته من الشوائب والضلالات التي لحقت به)، وباللغة (ترقية اللغة العربية، بعث التعليم بالعربية، فتح الفضاءات التي يمكن للمعربين عبرها نشر أفكارهم خاصة الصحف والنوادي الثقافية) والتاريخ (تفنيد مزاعم الاسطوغرافيا الفرنسية حول التاريخ الجزائري)، وقد شكل التاريخ موضوعا أساسيا للخطاب الإصلاحي من خلال التركيز على التأليف التاريخي الذي سعى لبعث التاريخ المنسي للجزائر وجعل الجزائريين يعتزون بماضيهم ويدركون أن التواجد الفرنسي بالجزائر ما هو سوى مرحلة قصيرة جدا من عمر التاريخ الجزائري المديد والعامر بالأمجاد، كما صوره مؤرخو الحركة الإصلاحية، والذين سنتطرق لجهودهم لاحقا.

فحرب الهوية التي أعلنها الإصلاحيون وجابهوا بها مختلف الأطراف (المرابطين، الفتيان الجزائريين، الإدارة الاستعمارية)، فرضت على هؤلاء الفقهاء والأئمة ذوو التكوين الديني في معظمهم، ورفاقهم من المؤمنين بالإصلاح، أن يخرجوا من تحت عباءة الدين ويتجهوا نحو مختلف المواضيع السجالية التي كانت تفرض نفسها بشكل مستمر ما بين الحربين العالميتين، لهذا، ورغم الطابع الديني لجمعية العلماء

[1] – خيثر عبد النور وآخرون، منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 263.

[2] – المرجع نفسه، ص 263.

[3] – علي مراد، مرجع سابق، ص 71.

المسلمين الجزائريين، ورغم تأكيدها من خلال ميثاقها التأسيسي، وعبر تصريحات ممثليها، بأنها جمعية تسعى لإصلاح الدين وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن المؤلفات والنتاجات الفكرية لأعضاء الجمعية ومفكريها البارزين كانت تتجه نحو المجتمع والتاريخ أكثر مما تلوذ بالدين وتتقوقع بداخله، لهذا، ونحن نسعى لتبيان دور الإصلاحيين، كنخبة فكرية، سنعمل على مقاربة النتاجات الفكرية والأدبية لهؤلاء الإصلاحيين وذلك عبر إدراجهم، كما تبين لنا من خلال قراءة بعض نتاجاتهم، ضمن ثلاث فئات أساسية: فئة رجال الدين، فئة المؤرخين، وفئة الأدباء،، وتغاضينا عن فئتين: الصحفيين والمعلمين رغم كون الفئتين تشكلان عدديا، مركز ثقل مهم، وذلك بسبب كون التعليم وكذلك الكتابة في الصحافة عملا مارسه معظم أقطاب التيار الإصلاحي بالموازاة مع نشاطاتهم الفكرية والسياسية الأخرى. فقد اشتغل معظم رجال الإصلاح بالتعليم الحر، وكانوا في الوقت نفسه دعاة مارسوا التنشيط الديني والمهام الدعوية عبر المنابر المتاحة (مساجد، نوادي، مناسبات دينية ووطنية). وبعيدا عن طبيعة المهنة الممارسة فقد كان معظمهم يفضلون أن يطلق عليهم اسم "العالم" وبدرجة أقل "الشيخ"، لما في التسمية من وجاهة وفخامة معززة باعتقادات شعبية حول العلماء تبؤهم مكانة الأنبياء وتعصمهم من النقد الذي قد يوجه لهم. إنهم يقدمون أنفسهم كناطقين باسم صحيح الدين، من هنا كانت تسمية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعبيرا مباشرا عن تلك النزعة المفرطة في الاتسام بسمة العلماء، رغم أن الكثير من رجال الإصلاح كانوا مجرد دعاة ذوو تكوين ديني وخطباء لم يكتبوا شيئا ذا بال في المجال الديني، أو سواه (الطيب العقبي، العربي التبسي...) ومع هذا كان الإصرار على اسم " العالم" الميزة المشتركة بينهم، بالإضافة إلى لقب الشيخ، مع ما يحمله هذا اللقب أيضا من وقار ومن مكانة ومرجعية لصاحبه.

5. النخبة الاصلاحية ومجالات نشاطها:

إن دراسة مسار تشكل النخبة الإصلاحية وميادين نشاطها ووسائل ذلك النشاط تمكننا من تقديم تفيئة تقريبية لمجالات هذا النشاط، وذلك بموضعة جل رجال النخبة الإصلاحية خلال الفترة الاستعمارية ضمن ثلاث فئات أو فرق رئيسية وهي: فريق رجال الدين، فريق المؤرخين، وفريق الأدباء.

1.5 .فريق رجال الدين في الحركة الاصلاحية :

ضمن هذه الفئة يتصدر اسم عبد الحميد بن باديس القائمة، وهو يتصدر واجهة الفكر الإصلاحي قاطبةً باعتباره الباعث والملهم والمناضل من أجل الأفكار الإصلاحية، فقد جعل هدف حياته بعد عودته من المشرق، نشر الأفكار الإصلاحية التي آمن بها، بالإضافة إلى عبد الحميد بن باديس يأتي الكثير من الدعاة: البشير الابراهيمي، الطيب العقبي، الشيخ بيوض، لكن ضمن رجال الدين يبرز اسم آخر من خارج الدائرة الدعوية لكن بأثر كبير في صوغ المذهب الديني للتيار الإصلاحي وهو الشيخ مبارك الميلي، المؤرخ الفذ، ولكن أيضا العقائدي الذي ألف أهم مرجع عقائدي للحركة الإصلاحية وهو كتابه " رسالة الشرك ومظاهره"، وهو الكتاب الذي سنعود إليه بشيء من التفصيل لاحقا لما يكتسيه من أهمية، لكن قبل ذلك من المهم أن نتوقف عند المعلم الأكبر للإصلاح في الجزائر، الشيخ عبد الحميد بن باديس.

أ–عبد الحميد بن باديس

نتجاوز هنا الحديث عن المسار الحياتي لعبد الحميد بن باديس فذلك معروف ومتوفر في الكثير من المراجع التي تتناول حياة الرجل وفكره، ونركز فقط على أثره الكبير في زملائه من رجال الإصلاح وقدرته على أن يرسخ المفاهيم التي صارت بمرور الوقت دالة بشكل مباشر على الإصلاح ورجاله في الجزائر. إن الحديث عن بن باديس الداعية والمصلح والصحفي والأديب، والذي كان في نظر أصدقائه،

وطلبته بمثابة " الوريث الحقيقي لكبار الأساتذة الروحيين للإسلام"[1]، هو حديث عن تصور سياسي، ورؤية ثقافية متحررة، وكذا مجموعة من التصورات الدينية العميقة، تمثلت كلها في كتابات بن باديس كمزيج ذو جاذبية لا تقاوم وتأثير فكري وروحي لا يخفى. إن تأثيره الفكري على المثقفين الملتفين من حوله كان واضحا وجليا، والتوجهات المذهبية التي أمد بها الحركة الإصلاحية مثلت السبيل القويم للعقيدة والمذهب الإصلاحيين، فرغم تعدد الأئمة والدعاة في التيار الإصلاحي الذي تشكل في معظمه من العلماء، أي رجال الدين، إلا أن شخصيتين فقط كانت لهما القدرة على صياغة العقيدة الإصلاحية، وتحديد الوجهة المذهبية للتيار الإصلاحي، أولهما، عبد الحميد بن باديس خاصة عبر دروسه بالجامع الأخضر وتفسيره للأحاديث النبوية، والتي مثلت نصف مؤلفاته التي جمعها عمار طالبي، فقد ظل بن باديس وعلى مدار عشر سنوات (من جانفي 1929 إلى سبتمبر 1939) يكتب افتتاحية بمجلة الشهاب تحت عنوان مجالس التذكير، والتي عبر فيها عن رؤاه الفقهية والدينية، وشكلت بذلك تراثا فقهيا مهمّا في نتاج الشيخ، في حين تشكل النصف الثاني من المقالات الصحفية ذات الطبيعة الاجتماعية والسياسية، أما الشخصية الثانية التي كان لها دور مؤثر وهام في صياغة الرؤية المذهبية للتيار الاصطلاحي فهي شخصية محمد مبارك الميلي، والذي سنتطرق لجهده لاحقا.

كان نشاط بن باديس الإصلاحي مسكونا دوما بنزعة رسولية، كانت الدافع الجوهري وراء نشاطه الدؤوب، وحماسته التي لم تفتر يوما، وهذا ما جعله بالإضافة إلى مميزات الشخصية: الوقار، الهدوء، الاستقامة، ورصانة العقل، ينظر إليه من طرف زملائه، والبسطاء من الناس كواحد من المجددين في الدين، فرفاقه قد " شبهوه بالشخصيات الكبرى التي، من قرن إلى آخر، تحرك الوعي الإسلامي قالبة أحيانا الأنظمة السياسية والأنساق الاجتماعية، واضعة سبلا أخلاقية ودينية جديدة وتوجهات ثقافية جديدة"[2]، وهو لأجل بلوغ هذه المكانة في النفوس والعقول، ومن أجل تحقيق كل ذلك الأثر الذي لا يخفى على أحد في حياة الجزائر المستعمرة خلال النصف الأول من القرن العشرين قد نذر " في سبيل عقيدته إخلاصا لا يضاهى وحماس المعلم وخصال الصحفي ورجل الدعاية، إذ كان كاتبا بارعا، وكان له باع طويل في فن الخطابة"[3]، لقد كان، وهو الإمام ذو التكوين الديني، مثقفا ملتزما بالمعنى الذي قصده سارتر وهو يتحدث عن المثقف الملتزم، وإذا كان قد قاد تطلعات فئة صغيرة العدد، محدودة النطاق، محصورة جغرافيا، من الجزائريين ذوي التكوين الديني في معظمهم، دون الانطلاق من سند طبقي أو دعامة فئوية تتبنى أفكاره وتذود عنها، فإنه قد ساهم، وتلك ميزته، وذلك أثره الذي لا يمحى، في خلق حاضنة اجتماعية واسعة، ممتدة، وقوية، للأفكار الإصلاحية، وجعل المفاهيم التي نذر فكره وقلمه للدفاع عنها وترسيخها في المجتمع: الهوية الجزائرية، الدين الإسلامي، اللغة العربية، الأمة الإسلامية، تاريخ الجزائر، القومية، النهضة... تتغلغل تدريجيا في وعي عدد كبير من الأفراد الذين تلقفوها عبر نشاطات ومنابر الإصلاحيين، وعبر المؤسسات التعليمية التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتجد من يتبناها، والأهم تجد من يموضعها كغاية وجودية، ويدافع عنها، في مواجهة المفاهيم الأخرى التي تبثها المنظومة الاستعمارية، وتسعى إلى فرضها.

ب–مبارك الميلي

---

[1] – المرجع نفسه، ص 99.

[2] – المرجع نفسه، ص 98.

[3] – شارل روبير أجرون، مرجع سابق، ص 515.

لا يمكن الحديث عن رجال الدين في الحركة الإصلاحية، أي أولئك الذين صاغوا التوجهات المذهبية والعقدية للتيار الإصلاحي، دون الرجوع إلى الشيخ مبارك الميلي(*)، ورغم كونه معروفا كمؤرخ، وسنعود إلى جهده التاريخي بتفصيل أكثر حين نتعرّض لفئة المؤرخين الإصلاحيين، إلا أنه قد ساهم من خلال كتابه المرجعي: "رسالة في الشرك ومظاهره"، مساهمة جبارة في صياغة الوجهة المذهبية للتيار الإصلاحي، وزود رفاقه بمرجع ذو مصداقية في مواجهة خصومهم الطرقيين والمرابطين الذين كان الإصلاحيون، وانطلاقا من نزعتهم السلفية، يعملون على فضح ممارساتهم "الشركية" وكشف زيف عقيدتهم وضلال معتقداتهم، فهو يشكل "مع ابن باديس والإبراهيمي الثلاثي الأقوى والأنجع للحركة الإصلاحية الجزائرية، ذلك أنهم يشكلون حقا النواة المذهبية لهذه الحركة"[1]، إن "رسالة الشرك ومظاهره" تعتبر الكتاب الأساسي، والوحيد أيضا، الذي صدر عن فريق الإصلاحيين فيما يخص العقائد، بالإضافة طبعا إلى دروس بن باديس ومقالاته بالشهاب التي جُمعت لاحقا، وهذا ما جعل ترحيب الجمعية به حارا والدعوة للأخذ بما ورد فيه قوية، فقد كتب العربي التبسي، نيابة عن أعضاء الجمعية، مشيدا بالكتاب وما جاء فيه: "وإن المجلس الإداري لجمعية العلماء يقرر بإجماع أعضائه أحقية ما اشتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة، ويوافق مؤلفها على ما فيها، ويدعو المسلمين إلى دراستها والعمل بما فيها؛ فإنه العمل بالدين"[2].

يعتبر مبارك الميلي مفكر الإصلاحيين، بعض أصدقاءه كانوا ينادونه بالفيلسوف، نشاطه الفكري انصب نحو التأليف المتعمق على عكس رفاقه الذين اكتفوا بالدعوة والمقالات الصحفية المجتزأة، وهو من خلال مؤلفه "رسالة الشرك ومظاهره" المنشور سنة 1937 قد قدم لرفاقه "مصنفا دينيا ملتزما وأداة من أدوات محاربة الزوايا"[3]، فالرسالة لم تكن كتاب فقه، ولا مجرد كتاب يشرح العقيدة السلفية من خلال تسفيه ومحاربة البدع والضلالات الشركية، فأكثر من ثلثي الكتاب كانت لتبيان الممارسات الاجتماعية والدينية المصنفة كممارسات شركية، وهي في معظمها ممارسات أهل التصوف والمرابطين وشيوخ الزوايا ومريديهم، لهذا فمؤلف الشيخ مبارك الميلي يتجاوز الجانب الديني المحض نحو الواقع السوسيولوجي للجزائر المستعمرة والذي يرى، كما يرى رفاقه الإصلاحيون المشبعون بالروح السلفية التي تدعو للعودة إلى أصل الدين: الكتاب والسنة، أنه واقع بعيد عن جوهر الدين، وأن ما تعانيه الأمة الجزائرية من هوان وضِعة إنما يعود في

(*) – ولد الشيخ مبارك الهلالي، الذي سيحمل لاحقا لقب الميلي نسبة إلى بلدة الميلية، سنة 1897، وفيها بدأ تعليمه قبل أن يلتحق بقسنطينة أين سيكون واحدا من تلاميذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، ثم التحق، اقتداء بمسار شيخه، بجامع الزيتونة بتونس الذي عاد منه سنة 1924 بعد أن حصل على شهادة التطويع، ليستغل في التعليم الحر بقسنطينة ثلاث سنوات قبل أن يتجه نحو الأغواط التي سيقضي بها سبع سنوات (1927-1933) وهي سنوات خصبة وعامرة بالإنجازات، خاصة في مجالي التعليم والتأليف، ونشر المذهب الإصلاحي عبر جهد وإيمان ومثابرة مشهودة، تركت أثرها في العديد من تلاميذه الذين سيواصلون عمله الإصلاحي بعد ذلك، حين يقرر، بعد أن احتدم الصراع بين العائلتين النافذتين بالأغواط وكونه طرفا في ذلك الصراع، العودة إلى مسقط رأسه بالميلية أين أنشأ مدرسة "الحياة" لنشر التعليم العربي، وبث الروح الإصلاحية عبرها وعبر نادي الإصلاح الذي كان منبرا لمحاضرات الإصلاحيين بالمنطقة، سنة 1931 ساهم مع رفاقه الإصلاحيين في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي انتخب أمينا للمال بها، وسنة 1936 أسندت له مهمة إدارة جريدة البصائر بعد انسحاب الذيب العقبي من إدارتها بسبب مشاكله القضائية، سنة 1940 بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس سيختار مبارك الميلي ليكون خليفته في الجامع الأخضر بقسنطينة، وهو التشريف والمكانة التي لم يحض بها أي واحد من أعضاء الجمعية، وكانت الخطبة وإلقاء الدروس بالجامع الأخضر هي المهمة التي نذر لها مبارك الميلي ما تبقى من حياته إلى وفاته يوم 9 فيفري 1945.

ترك مبارك الميلي، بالإضافة إلى العديد من المقالات الصحفية، كتابين في سيرتبط ذكرهم بالجهد الفكري، الثقافي، والمذهبي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهما: تاريخ الجزائر القديم والحديث، ورسالة الشرك ومظاهره.

(1) – علي مراد، مرجع سابق، ص 105.

(2) – مبارك بن محمد الميلي، رسالة في الشرك ومظاهره، تح وتع: أبي عبد الرحمان محمود، دار الراية للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 2001، ص 29.

(3) – شارل روبير أجرون، مرجع سابق، ص 516.

جوهره إلى ابتعاد أهل هذه البلاد عن روح الدين الصحيح، لهذا فقد تصدى مبارك الميلي، معززا بأيديولوجيته الإصلاحية، ومسنودا بمرجعية سلفية تتجاوز الواقع المذهبي للإسلام الجزائري الذي يأخذ بالمذهب المالكي كمرجعية عليا في الأمور الدينية، نحو مرجعية سلفية تجد ضالتها عند الحنابلة الجدد: ابن تيمية وابن القيم الجوزية بنفس القدر الذي تنهل فيه من إرث مالك وسحنون والخليل.

إن مبارك الميلي، القارئ الجيد للمنار، والمتأثر بحملة رشيد رضا ضدّ الشرك والبدع، قد نجح، وهناك تكمن قوة "رسالة الشرك ومظاهره"، في ربط الممارسات الاجتماعية المترسخة في البيئة الجزائرية المسكونة بالروح الصوفية والمشدودة بقوة لتراث مرابطي مكين، بالمرجعيات النصية التي تعرّيها من المشروعية الدينية، أي أنه جعل، باسم الدين وبحجية النصوص التي يصعب ردها، من تلك الممارسات موضع إدانة قوية، وساهم بجدارة في حرب الإصلاحيين ضد المرابطين، تلك الحرب التي كانت في أحدى وجوهها، تنافسا على الاستحواذ على عقول وأفئدة المؤمنين الغارقين في الجهالة والبؤس والذين يفتقدون للصوت والكلمة والفكر، ويظلون، بسبب قصورهم المعرفي وأميتهم الثقافية، ولا وعيهم السياسي، بحاجة دائمة لمن يمثلهم ويتحدث باسمهم، ويدافع عنهم.

2.5. فريق المؤرخين في الحركة الإصلاحية :

مع الأمير خالد ترسخ مفهوم سياسي للتاريخ في الجزائر المستعمرة، مفهوم يربط التاريخ بالوطنية، ويربط هذه الأخيرة بالمقاومة، ويعطف الاثنان على رفض ايديولوجي ونفسي للمستعمر الذي كسر المقاومة ونفى صفة الوطنية عن المقاومين باعتبارهم مجرد خارجين عن القانون وهم يواجهون فرنسا، وباعتبارهم مجرد متساكنين في حيز جغرافي واحد، لا رابط قوي بينهم، وهم يواجهون، كجماعات متفرقة، الغزاة الذين تداولوا على هذه الأرض على مر التاريخ. واهتمام الحركة الإصلاحية بالتاريخ، وتوجه عددٍ من أعضاءها الفاعلين نحو الكتابة التاريخية كسبيل جديد للنضال الثقافي، وكأداة مجابهة ضد الكولونيا لية الفرنسية ما هو في النهاية إلا نتاج لهذا التصور الجديد للتاريخ الذي تأكد في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، حيث نقل الكتابة التاريخية الجزائرية من هشاشة السرديات السطحية والأساليب العتيقة نحو رؤية أكثر منهجية للتاريخ، ومن الاهتمام بالتواريخ المحلية التي تكتفي بتاريخ ذو نزعة مناطقية وجهوية منقطعة عن الامتدادات الوطنية جغرافيا، وإن لم تنقطع عن عمق التاريخ المشترك زمنيا، إلى الاهتمام بالتاريخ الوطني ككل، والتفرغ لكتابة تاريخ للجزائر يكون بمثابة الرد على التزييف الذي لحق بتاريخنا من طرف "المدرسة التاريخية الفرنسية". فقد عملت هذه الأخيرة، عبر فترة زمنية طويلة، على نفي فكرة الوطن، بالنسبة للجزائر، وبالتالي إلغاء كل ما يتفرع عنها من مفاهيم: الوطنية، الدولة الجزائرية، التاريخ الجزائري، الشعب الجزائري الواحد، الهوية الوطنية... معتبرة أن تاريخ الجزائر كدولة بدأ مع الاحتلال الفرنسي، وأن فرنسا هي التي أوجدت الجزائر بشكلها الحالي وبمختلف الأجناس والجماعات التي تسكنها. لقد أنشأت مدرسة الجزائر للتاريخ تصوّرا عن التاريخ الجزائري أرادت له قوة البداهة؛ تصور مؤسّس على الخيالات البعيدة وعلى الزيف الايديولوجي، وعلى الاستجابة "العلمية" للتطلعات السياسية، تصور يخدم الواقع الكولونيا لي للجزائر المقبلة على الاحتفالات بمأوية الوجود الفرنسي بالجزائر، وهي الاحتفالات التي أرادها المعمرون والإدارة الفرنسية تكريسا للجزائر الفرنسية، لهذا فقد كانت مجمل التصورات التاريخية المنتجة فرنسيا حول الجزائر، رغم ما يعتريها من زيف، ترفض التشكيك فيها، وهي على كل حال لم تجد من يشكك فيها بعمق، وتعترض على كل مناقشة رافضة لمسلماتها التي انطلقت منها وبنت عليها معارف تدعي لنفسها العصمة العلمية.

التصور الذي كرسه المؤرخون الفرنسيون حول تاريخ الجزائر هو الذي قام مؤرخو الحركة الإصلاحية بالعمل على تفنيده عبر تبني التصور السياسي للتاريخ الذي أرساه الأمير خالد في مقالاته وخطبه وهو يستحضر تاريخ مقاومة الأمير عبد القادر ويربطه بالدولة الجزائرية وبالشخصية الوطنية ذات الهوية الخاصة المختلفة عن الهوية المختلقة كولونيا ليا للجزائر المستعمرة. عمل الإصلاحيين في مجال التاريخ لم يكن ممكنا له التحقق والاستمرارية دون توفر جملة ظروف أدت إلى انبثاق تصور جزائري خالص لمعنى التاريخ يربطه، كعلم،

بالوطنية والهوية كمجال حاضن لمقولات التاريخ، وهو تصور وإن كان يعاب عليه جانبه الدعائي، فإنه، استطاع، وبجدارة، أن يمنح الفريق الإصلاحي صوتا كان مفتقدا، وهو صوت الحقيقة التاريخية القوية الحجة والشديدة التأثير.

وسنقف وقفة موجزة مع اثنين مع رواد الكتابة التاريخية الجزائرية، واللذان يمثلان فريق المؤرخين بالحركة الإصلاحية.

أ-مبارك الميلي (1898-1945)

تبرز أهمية مبارك الميلي كمؤرخ باعتباره أوّل من ألف تاريخا خاصا بالجزائر عبر مختلف المراحل والأزمنة، وتبرز أهميته كمصلح، من خلال عمله التاريخي، في كونه قد زود الإصلاحيين بمرجع شديد الأهمية يترجم المفاهيم الإصلاحية حول الهوية والدين والتاريخ الجزائري، وينقلها إلى مجال الممارسة عبر تأكيدها تاريخيا كحقائق، وترسيخها حاضرا في نفوس النشء عبر التعليم الإصلاحي الذي زوده الميلي بمرجع تاريخي شامل وموثوق في مادته وأيديولوجيته. فالشيخ مبارك، كما يسميه تلامذته، " كتب تاريخا هو في الواقع درس في السياسة والوطنية وجزء من مهمته كمرشد وواعظ ومدرس في مدرسة الإصلاح"[1]، وهو حين اتجه للتاريخ فعينه كانت بكل تأكيد مصوبة على الحاضر، وحين أدان مختلف المستعمرين والغزوات الأجنبية التي مرت بالجزائر، فإنه، ودون أن يصرح بذلك يدين الاستعمار الفرنسي باعتباره حكما أجنبيا عن أهل البلد ولغتهم ودينهم، وهو في إدانته تلك لا يكتفي بالقيم الدينية التي قامت الحركة الإصلاحية من أجل بعثها من جديد في روح الأمة الجزائرية إنما يستند أيضا على مبادئ الثورة الفرنسية، التي لم تكن بعيدة عن وعيه كرجل علم ومؤرخ ومصلح، ويدين عبرها الجور والظلم الذي يعانيه الجزائريون باسم تلك المبادئ، وهو حين فصّل، في الجزء الثاني من كتابه، في حكم العرب للمغرب الأوسط ومختلف الدول والإمارات العربية التي مرت بالمنطقة، بدا وكأنه " يقوم بمقارنة بين حكم العرب العادل في نظره والحكم الفرنسي الظالم"[2]، لقد جعل من التاريخ سبيلا للنضال الثقافي ضد التصورات الاستعمارية، فاتحا بذلك، رفقة زميله توفيق المدني، بابا جديدا للمجابهة الثقافية ضد الاستعمار الفرنسي المزهو باحتفالية المئوية أثناء فترة نشر الكتاب. ولم تمض فترة طويلة على نشر الكتاب الذي تم الإعلان عليه قبل صدوره، وتم الاحتفاء به من طرف رئيس جمعية العلماء المسلمين عبد الحميد بن باديس بحفاوة، وأشاد به الأمير شكيب أرسلان، حتى أصبح " مع كتاب أحمد توفيق المدني مرجعين نموذجيين في توضيح وتجسيد التعاليم التي تنشرها جمعية العلماء المسلمين، وهذا مع التشييد التدريجي للمؤسسات التعليمية التي بدأت تتكاثر عبر التراب الوطني"[3] وتشكل الحاضنة القوية للفكر الإصلاحي الذي دخل منذ الثلاثينيات مرحلة التوسع والخروج من الدائرة النخبوية الضيقة التي تأسس في حضنها نحو عامة الشعب باعتباره المستهدف من جهود الإصلاح.

أصدر الميلي الجزء الأول من تاريخ الجزائر في القديم والحديث سنة 1929 وأتبعه بالجزء الثاني سنة 1932، وكلا الجزأين صدرا عن المطبعة الإسلامية الجزائرية، خصص الجزء الأول لما أسماه " في تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي"[4] وتطرق فيه لتاريخ الجزائر منذ العصر الحجري وصولا إلى المرحلة البيزنطية من تاريخ الجزائر، في حين اشتمل الجزء الثاني على تاريخ الجزائر منذ "غزو العرب لإفريقيا وتأسيس إمارتهم فيها"[5] إلى غاية الدولة الزيانية، آخر الدول بالجزائر قبل دخول الأتراك، والمرحلة التركية من تاريخ الجزائر، مثلها مثل مرحلة الاستعمار الفرنسي، هي التي كان ينوي مبارك الميلي كتابة تاريخها دون أن يسعفه الوقت والجهد لذلك، وقد نشر نجله محمد الميلي بعد

---

(1) – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، ص306.

(2) – رابح لونيسي، دراسات حول إيديولوجية الثورة وتاريخ الثورة الجزائرية، دار كوكب العلوم، ط2، الجزائر، 2012، ص155.

(3) – جيلالي صاري، بروز النخبة المثقفة الجزائرية (1850-1950)، تر: عمر المعراجي، منشورات ANEP، الجزائر، 2007، ص 266.

(4)– أنظر: مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ت.

(5)– أنظر: مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ت.

الاستقلال الجزء الثالث من الكتاب وهو الجزء الخاص بالمرحلة التركية من تاريخ الجزائر، والذي لم يكتب منه مبارك الميلي سوى عشرين صفحة[1] كما جاء في مقدمة الكتاب الذي ألفه بصورة شبه كاملة الابن محمد، كنوع من الشعور بالدين اتجاه الوالد الذي باشر بتأليف الكتاب دون أن يتمكن من ذلك.

رغم أن الكتاب في جزأيه، الأول والثاني، إذا استثنينا الجزء الثالث لاعتبار أن مبارك الميلي لم يقم بتأليفه، قد تم تقسيمه وفقا لتقسيمات التاريخ السياسي للجزائر، إلا أن المؤلف لم يهتم بالتاريخ السياسي والعسكري على حساب تاريخ العوام، أي تاريخ الشعب الحضاري والثقافي والاجتماعي، فقد ركز على دور الشعب في إفشال الاستعمار الأجنبي للبلد، وعلى قوة اللحمة الوطنية باعتبارها الضامن الوحيد لبقاء الشعب وانتصاره، لقد بحث الميلي عبر كتابه هذا عن الأمة الجزائرية في التاريخ، وتساوقا مع الطروحات الإصلاحية عمل على بعث البحث عن المكونات الأصيلة للهوية الجزائرية مؤكدا على الرفض الدائم والعنيف الذي جابه به الشعب كل الغزوات الاستعمارية الأجنبية التي توالت على البلد، مؤكد عبر ذلك لقرائه في القرن العشرين، بأن الاستعمار الفرنسي ما هو إلا مرحلة عابرة في تاريخ الجزائر، وأن الشعب الذي قاوم الرومان والوندال والبيزنطيين، باعتبارهم غزاة أجانب، سيقوم بالأمر نفسه ضد الاستعمار الفرنسي.

ب–أحمد توفيق المدني (1899–1983)

لم يتولى احمد توفيق المدني أي منصب قيادي في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلا في بداية الخمسينيات، لكنه ومع ذلك، وكمتعاون ومنشط ثقافي، ساهم في الكثير من النشاطات المرتبطة بالجمعية منذ الثلاثينيات، فقد " شارك في تنشيط العمل الثقافي والصحفي والتأليف. في المجال الأول ساهم في تأسيس نادي الترقي بالعاصمة وإنشاء بعض المدارس الحرة، وفي المجال الثاني شارك بمقالاته الصحفية في الشهاب... وفي المجال الثالث وجدناه قد أصدر عدة مؤلفات خلال العشرينات والثلاثينات، منها قرطاجنة، وتقويم المنصور، وكتاب الجزائر، ومحمد عثمان باشا"[2].

ولد أحمد توفيق المدني في 16جوان 1899 بتونس، وتوفي بالجزائر العاصمة يوم 18 أكتوبر 1983، رغم مولده التونسي فهو جزائري الأصل، هاجرت عائلته إلى تونس بعد ثورة المقراني، "جده هو أحمد بن محمد المدني مولدا، القبي الغرناطي الشرف، كان أمين الأمناء بالجزائر العاصمة"[3] فهو ينتسب إلى العائلات الأندلسيّة التي فرّت إلى الجزائر عقب سقوط غرناطة، ومعروف عن العائلات الأندلسية اهتمامها بالعلم والمعرفة، وهذا ما جعله يسلك مسارا تعليميا لامعا، بدأه على يد أمه التي علمتّه القرآن، ثم التحق بإحدى "كتاتيب تونس العاصمة وهو لم يتجاوز الخامسة من العمر، ثم انتقل سنة 1909م إلى المدرسة الأهلية القرآنية، ومنها إلى الجامع الأعظم للدراسة بجامعة الزيتونة سنة 1913م" [4]، ولأنه كان واحدا من المثقفين الطموحين لترك أثر في حياة أمتهم، كما سيكتب لاحقا في مذكراته، فقد "انخرط مبكرا في الحياة السياسية التونسية، إلى جانب معارضين ذوي التكوين الزيتوني. سُجن قبل أن يبلغ العشرين من عمره (1915–1918) بسبب نشاطه في صلب "لجنة الشبان الثوريين". في عام 1920 أنشأ مع الأصدقاء، حزب الدستور التونسي الذي أصبح مديره السياسي"[5]، وبسبب نشاطه المكثف في وطنه تونس، تم نفيه سنة 1925 إلى الجزائر حيث سيبدأ سيبدأ فيها مسيرة نضالية وثقافية حافلة ممتدّة لأكثر من نصف قرن.

---

(1) – أنظر: مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964.

(2) – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ص418.

(3) – مريم سيد علي مبارك، مثقفون خلال الثورة، دار المعرفة، الجزائر، 2012، ص 50.

(4) – المرجع نفسه، ص 50.

(5) – علي مراد، مرجع سابق، ص 137.

في مؤلفه "كتاب الجزائر" والذي حُضي باستقبال حار من طرف الإصلاحيين باعتباره لسان حالهم، وحامل لتصوراتهم المتعلقة بالأمة الجزائرية ووجودها التاريخي الذي كان الخطاب الإصلاحي يؤكد عليه، دون أن يملك خطابا يحظى بمصداقية علمية، يقدم عبره هذا الوجود التاريخي، سعى توفيق المدني باجتهاد وكفاءة نادرتين لدى كتاب العربية في ذلك الوقت، إلى "البرهنة على استمرار الدولة الجزائرية عبر التاريخ"[1]، وهو رغم كثرة المراجع الفرنسية التي اعتمد عليها، فإنه قد ألّف كتابا عن الجزائر للجزائر، سعى بأن تكون " لغته وأسلوبه وعاطفته كلها في صالح الهوية العربية – الإسلامية للجزائر"[2]، ليس عبر الرجوع إلى التاريخ وتأكيد ذلك البعد الأساسي للهوية الجزائرية فحسب، فالتاريخ السابق على المرحلة الاستعمارية لم يشكّل إلا جزءا بسيطا لا يتجاوز 10 بالمئة من محتوى الكتاب، إنما عبر تأكيدها في فترة احتفال المعمرين والإدارة الفرنسية بالمئوية التي بدأ الاستعداد لها منذ 1927 واستمر إلى ما بعد 1930، في هذه المرحلة، واعتمادا على إحصائيات، وفرتها المراجع الفرنسية، خاصة كتاب موريس فيوليث "الجزائر هل ستعيش".

أكّد المدني على الصحوة الأهلية وعلى العودة القوية لمكونات الهوية الجزائرية، وعلى انبثاق الوطنية الجزائرية كأداة للمجابهة الثقافية والسياسية ضد المستعمر الذي حسم انتصاره العسكري منذ 1871 إلا أنه لا يزال متذبذبا وفي حالة فشل إزاء تحقيق النصر المعنوي من خلال تطبيق سياسات الاستيلاء الأخلاقي على الأهالي عبر المدرسة والإدماج، وعبر القوانين الإدارية والتنظيمية المختلفة التي كان هدفها الأساسي استيعاب الجزائريين[*] وإدماجهم في بوتقة الجزائر الفرنسية وفق تصورات وخطط تخدم المعمرين وتحافظ على مصالحهم، فالكتاب الذائع الصيت قد شكل " إحدى المساهمات الأساسية في المسعى الرامي إلى الإحياء الوطني الذي شرعت فيه الحركة الإصلاحية وكذا بعض الكتاب والصحفيين من ذوي النزعة العلمانية"[3]، كان لبنة أساسية في مشروع الميلي الثقافي والنضالي، وشكّل أيضا، وذلك أكثر أهمية، مرجعا موثوقا لأجيال من الجزائريين الذين صار بإمكانهم، وعبر لغتهم الأم، أن يقرأوا بتعمق عن تاريخهم وحاضرهم كجزائريين، والمدني قد أكد على الدافع التثقيفي وراء تأليف الكتاب، فهو يدين، ويتأسف لجهل الجزائريين بتاريخهم "كأنهم خلقوا على أرض مبتورة الأصل، مجهولة النسب، فاقدة لكل مقومات الحياة"[4]، ويحث الشباب المسلم، على وجه الخصوص، بأن يأخذ بأسباب العلم، وأن يرتقي بالمعرفة، لهذا كان تأليفه موجها لهذه الفئة التي يعول عليها في النهوض بالهوية العربية الإسلامية للجزائر، والتي سعى الاستعمار لطمسها على مدار قرن من الزمن، وهو عبر عمله هذا إنما يقدم خلاصة المعرفة المتاحة حول الجزائر منذ القديم وإلى غاية زمن التأليف، جامعا بين التاريخ والاقتصاد والآداب والثقافة. كتب المدني في مستهلّ الكتاب: " ها أنا ذا يا شبان المسلمين، أقدم لكم "كتاب الجزائر". وقد جمعت لكم بين دفتيه، ما يجب على كل جزائري أن يعرفه عن بلاده؛ وفيه نهاية ما أوصلني إليه بحثي واجتهادي في هذا المضمار"[5]، وهو قد أعاد صياغة كل المعلومات المتاحة له عبر مجموعة متنوعة من المراجع ليؤلف كتابا يمكن لأي

---

(1) – المرجع نفسه، ص 138.

(2) – أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص422.

(*) – من أجل معرفة أكثر تعمقا فيما يخص سياسات الاستيعاب المختلفة التي اعتمدها الاستعمار الفرنسية منذ 1830 وإلى غاية الاستقلال، والرامية إلى جر الجزائريين نحو التسليم النهائي بالجزائر الفرنسية، يمكن العودة إلى الدراسة القيمة التي أصدرها جمال خرشي، ينظر: جمال خرشي: الاستعمار وسياسة الاستيعاب في الجزائر 1830-1962، تر: عبد السلام عزيزي، دار القصبة، الجزائر، 2009.

(3) – علي مراد، مرجع سابق، ص 138.

(4) – أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، د ت. ص 2.

(5) – المرجع نفسه، ص 3.

جزائري أن يبحث عن نفسه وانتمائه بين دفتيه، فالكتاب كما وصفه ابن شنب "محاولة من صاحبه لإثبات أن الجزائر لا يمكن دمجها أو إلحاقها بفرنسا، وأنها تملك شخصيتها المتميزة والتي يشهد لها تاريخها وحاضرها"[1].

3.5.فريق الأدباء في التيار الإصلاحي:

لا نقدم هنا أسماء للأدباء الإصلاحيين بمقدار ما سنعمل على إبراز أثر الحركة الإصلاحية وجمعية العلماء على الحقل الأدبي قاطبة، رغم أن هذا الحقل لا يخلو من أسماء جديرة بالتنويه والتوقف عندها طويلا مثل رضا حوحو والزاهري ورمضان حمود وغيرهم.

إنّ التعامل الإيديولوجي مع اللغة الذي اتسمت به الجمعية، والأدباء القريبون منها، والذين اتخذوا من مجلاتها منبرا لهم، قد أدى، ودون قصد أو توجيه سلطوي من طرف الجمعية، إلى التأكيد على أجناس أدبية على حساب أجناس أخرى؛ الشعر والمقالة على حساب القصة والمسرحية، والاحتفاء بأساليب على حساب أخرى؛ الأساليب العربية الكلاسيكية، والكلاسيكية المحدثة في شكلها الإحيائي، والرومانسي لاحقا، على حساب الأساليب الحديثة والمبتكرة ذات الصيغ العصرية التي كانت تزدهر لدى الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية في نفس الفترة، وتفضيل مواضيع على حساب مواضيع أخرى: المواضيع ذات الصبغة السياسية المؤكدة على مقومات الهوية، ومواضيع الدعوة الإصلاحية، والمواضيع المرتبطة بالعالم العربي الإسلامي المؤكدة على قوة الرباط الديني الجامع لكل المسلمين، على حساب مواضيع مرتبطة بالواقع الجزائري المعيش خاصة ما يتعلق بالثقافة الشعبية في الجزائر التي تم النظر إليها بتوجس واعتبر الاهتمام بها فعلا كولونيا ليا هدفه ضرب اللغة العربية وصحيح الدين الإسلامي. وهذا "التوجه الأدبي" للجمعية والذي لم يكن مقصودا، ومخططا له، بمقدار ما كان استجابة "عفوية" للتحديات التي وجدت النخبة الإصلاحية نفسها في خضمها، قد أدى إلى جعل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي تقدم نفسها كتيار إصلاحي ذو غايات دينية تبتعد عن السياسية، ينخرط في الفعل الثقافي لجزائر الثلاثينيات والأربعينات، مما جعلها تتمظهر بشكل من الأشكال كتيار أدبي، وهي بتوجهها الأدبي، ونتيجة كون الكثير من أعضاءها والفاعلين في نشاطاتها كانوا يتعاطون الكتابة الأدبية (الشعر والمقالة خاصة)، قد تركت أثرا كبير ا على تطور أجناس أدبية، وساهمت في إحداث نهضة أدبية غير مسبوقة في الجزائر المستعمرة عبر استلهام تجارب النهضة الأدبية بالمشرق، وعبر "التجديد" الذي باشر به أدباء الجمعية في مجالات عدة على رأسها المقال الأدبي والسياسي، والشعر، والمقال القصصي.

ساهم التوجه الديني والسياسي المتمركز على مقومات الهوية، وطريقة تعاطي الإصلاحيين مع اللغة العربية بشكل كلاسيكي يروم العودة إلى الأساليب العربية القديمة باعتبارها نماذج يجب أن تحتذى ويتم ترسيخها في ذهن الكتاب والقراء على السواء كنماذج للكتابة الجديدة التي تدعو إليها الجمعية ويمارسها أعضاؤها، في تعطيل اهتمام الجزائريين بأجناس أدبية حديثة خاصة جنس الرواية الذي راح يؤلف فيه الجزائريون بالفرنسية منذ العشرينيات، لينبثق كحقل روائي جزائري بالفرنسية في الخمسينات، وهو الحقل الروائي الذي ظل غائبا عن الأدب العربي في الجزائر بسبب النزعة اللغوية المحافظة للإصلاحيين، وبسبب ميلهم الأدبي نحو الشعر والمقالة باعتبارهما أكثر تناسبا مع وسائل النشر المتاحة وقتها (المجلات والجرائد) التي اعتمدتها الجمعية كوسائل دعاية لمشروعها الإصلاحي. "فلم يكن أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يهتمون بالناحية الجمالية، بقدر ما كانوا يهتمون بالدلالة السياسية والاجتماعية في كتاباتهم"[2] وهذا الاهتمام المفرط بالجانبين السياسي والاجتماعي، المعطوف على خطاب ديني ظل يحتل مركز الصدارة في الكتابة الإصلاحية حتى وهي تنوس بين أساليب وأشكال تعبير مختلفة، كان هو الأنسب لوسائل التعبير والتوصيل التي تحوزها الجمعية وتخاطب بها العالم: الجرائد والمنابر.

---

[1] – رابح لونيسي، دراسات حول أيديولوجية وتاريخ الثورة الجزائرية، كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص 163.

[2] – مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2000، ص 11.

وإذا كانت المنابر مخصصة للخطب وللإلقاء الشفوي للنصوص الأدبية (الشعر خاصة)، فإن الجرائد والمجلات هي التي لعبت الدور الأساسي في النشر وبالتالي ساهمت في صياغة التوجه العام للإنتاج الفكري والأدبي بالعربية بعد الحرب العالمية الأولى، ولأن جرائد ومجلات الجمعية تمتعت باستمرارية مريحة في الصدور وبانفتاح على التيارات الأدبية في المشرق وبفتحها المجال أمام الكتاب الجزائريين للنشر، فقد شكلت سلطة توجيه قوية لطبيعة المواضيع، ولنوع الأجناس، والأساليب المرحب بها من لدن المشرفين على تلك الجرائد والمجالات؛ لقد تحولت إلى ما يشبه الغربال الذي لا يمر عبره إلا ما ترتضيه أيديولوجية الإصلاحيين ومصالحهم لهذا، فهي، ودون قصد على الأرجح، قد " أعاقت تطور المجال الإبداعي أو على الأقل حصرته، وحددته في الشعر، مثل الشهاب والبصائر"[1] التي، وإن كانت قد ساهمت في الدفع بالأساليب الشعرية خطوات جبارة في طريق التجديد وتبني التحديث الذي حصل للقصيدة العربية في المشرق العربي مع الحركة الإحيائية وما لحقها من تيارات ومدارس أدبية حديثة، فإنها في الوقت نفسه، وبانغلاقها أمام الإبداعات النثرية، قد أعاقت "بشكل ما ظهور الفن الروائي بكثافة وتطوره بشكل طبيعي كما في باقي الأقطار العربية"[2]، فالإصلاحيون، كما تجلى ذلك في جرائدهم، وعبر مختلف إبداعاتهم المكتوبة، رغم قوة انفتاحهم على الحداثة الأدبية في المشرق العربي، إلا أنهم على المستوى المحلي ظلوا مخلصين للأنواع الأدبية العربية الكلاسيكية، وخاصة للشعر، ولم يكن لهم دور كبير في حدوث نهضة أدبية حديثة، كما حصل بالمشرق العربي، الذي كانوا ينظرون إليه ويتعاطون مع انتاجاته الأدبية والفكرية بانفتاح موشّى بالإعجاب والتقدير، فقد انحصر دورهم، كما كتب حمود رمضان، وهو القريب منهم والحاضر بقوة عبر صحفهم، في حفظ اللغة العربية الكلاسيكية وإعادة بعثها بعد أن تهددها الزوال لقرن من الزمن تحت وطأة السياسة الاستعمارية الرامية إلى طمس معالم الهوية الجزائرية.

6. خاتمة:

إن انتهاءنا في هذه الدراسة إلى تقديم تفيئة مبدئيّة لمجالات نشاط النخبة الإصلاحية في الجزائر بقدر ما هو خاتمة دراستنا بمقدار ما هو فتح للباب أمام بحوث ودراسات أكثر اتساعا تنطلق من فكرة الاختلاف بين أقطاب النخبة الإصلاحية وتمايز مجالات النشاط وأشكال التعبير الفكري والثقافي لدى هذه الجماعة التي لطالما تم النظر إليها كجماعة منسجمة ذات غايات مشتركة وأساليب عمل معروفة تم اختصارها غالبا في مجالين هما التعليم والصحافة، من أجل تبيان خصائص كل فئة وأشكال تعبيرها الخاصة ومنابر توصيلها لأفكارها، وهو ما سيشكّل تجاوزا للأفكار المترسبة حول فئة تمت دراستها بكثرة ولكن بشكل نمطي غالبا، مما جعل النظرة إليها لا تخرج عن الإطار الذي كرسته الكتابات الخاصة بالحركة الوطنية والتي أدرجت النخبة الإصلاحية ممثلة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ضمن تياراتها المختلفة.

إن تلك الصورة النمطية عن النخبة الإصلاحية في الجزائر هي ما حاولتُ في هذا البحث تجاوزه عبر الانعتاق من الطابع التاريخي للموضوع والذهاب إلى عمق فكرة الإصلاح وهي تتشكل في وعي وممارسات مجموعة صغيرة العدد من الرجال الذين وهبوا حياتهم وفكرهم لفكرة أساسية هي الإصلاح الديني دون أن يكونوا قادرين على الالتزام تماما بما أعلنوه من الاكتفاء بالجانب الديني للإصلاح، وهذا ما جعل نشاطهم يتنوع ويتعدد ويقترب من السياسة بمقدار ما يدعي الابتعاد عنها، دون أن يكون نشاطهم ذاك، رغم التقارب الفكري ورغم الانتماء التنظيمي لجمعية العلماء، حاجزا أمام استقلالية كل واحد منهم بأفكاره وأسلوبه وطريقة ممارسته للإصلاح، فإذا كان بن باديس قد ركز على الخطابة والفتاوى وتفسير القرآن، فإن البشير الابراهيمي قد ركز على الكتابة الصحفية في المواضيع الاجتماعية بالإضافة إلى التعليم، وركز مبارك الميلي على التاريخ ومحاربة الانحراف الديني سبيلا لمحاربة الطرق الصوفية التي كانت تنازع

[1] – واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 56.
[2] – المرجع نفسه، ص 57.

الإصلاحيين الحق في تمثل المجتمع، في حين اكتفى الطيب العقبي والعربي التبسي بالخطابة المسجدية وبعض القصائد الأدبية التي حملوها رؤاهم الإصلاحية والفكرية، فالإصلاحيون ليسوا كتلة واحدة ولا فكرا واحدا إنما جمعتهم غايات مشتركة ومجموعة أفكار متمحورة حول الدين والهوية، وكل فرد من أفراد هذه النخبة عبر عنها بطريقته الخاصة.

قائمة المراجع:

1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 7، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998.
2) جيلالي صاري، **بروز النخبة المثقفة الجزائرية (1850–1950)**، تر: عمر المعراجي، منشورات Anep، الجزائر، 2007.
3) خيثر عبد النور وآخرون، **منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية 1830–1954**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.
4) رابح لونيسي، **دراسات حول إيديولوجية الثورة وتاريخ الثورة الجزائرية**، دار كوكب العلوم، ط2، الجزائر، 2012.
5) شارل روبير أجرون، **تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954**، الجزء الثاني، تر: محمد حمداوي وإبراهيم صحراوي، مر: عياش سلمان، دار الأمة، الجزائر، 2013.
6) عبد الحميد بن باديس، **آثار الشيخ بن باديس**، اعداد وتصنيف: عمار طالبي، الشركة الجزائرية، ط3، 1997.
7) علي مراد، **الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر**، تر: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007.
8) مبارك بن محمد الميلي: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ت.
9) مبارك بن محمد الميلي: **رسالة في الشرك ومظاهره**، تح وتع: أبي عبد الرحمان محمود، دار الراية للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 2001.
10) مبارك بن محمد الهلالي الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964.
11) مريم سيد علي مبارك، **مثقفون خلال الثورة**، دار المعرفة، الجزائر، 2012.
12) أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، د ت.
13) زيلوخة بوقرة، **سوسيولوجيا الإصلاح الديني في الجزائر**، مذكرة ماجستير، قسم علم الاجتماع والديموغرافيا، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009/2008.
14) مبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح : محمد الميلي، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ت.
15) حياوي مرابط مسعودة: **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية في جزائر القرن العشرين**، المجلد الأول، تر: محمد المعراجي، دار هومة، الجزائر، 2010.